مع ابنِ كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآيات قوله:

يقول تعالى مُخْبِرًا عن منكري البَعْثِ من المشركين: أنهم استبعدوا إعادةَ الأجسادِ بعد صيرورتها عِظاماً ورُفاتاً وتُراباً. ثم قال: ﴿ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ ﴾ أي: ما زِلْنا نسمعُ بهذا نحنُ وآباؤنا، ولا نرى حقيقةً ولا وقوعاً ﴿ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ يعنُون: ما هذا الوعدُ - بإعادة الأبدان - إلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ، أي: أخذه قومٌ عمَّن قبلهم من كُتبهم، يتلقَّاه بعضٌ عن بعضٍ. وليس له حقيقة.

قال الله تعالى مُجيباً لهم عمَّا ظنُّوه من الكُفْرِ، وعدم المعاد: ﴿ قُلْ ﴾ يا مُحمَّدُ لهؤلاء: ﴿ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ أي: المكذِّبين بالرسل، وبما جاءوهم به من أمرِ المعاد وغيره، كيفَ حَلَّت بهم نِقمةُ الله

(١) النمل: ٦٧- ٧٠.

وعذابُه ونكالُه، ونجَّى الله من بينهم رُسُلَه الكرام ومَن اتَّبعهم من المؤمنين. فدَلَّ ذلك على صِدْقِ ما جاءت به الرُّسُلُ وصحته.

ثم قال تعالى مُسَلِّياً لنبيِّه: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي: على المكذِّبين بما جئتَ به، ولا تَأْسَف عليهم، وتذهب نفسُك عليهم حسرات ﴿ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ أي: في كيدك وردِّ ما جئتَ به؛ فإنَّ الله مؤيِّدك وناصرك ومُظهر دِينك على مَن خالفه وعانده في المشارق والمغارب.

ذاك ما ذكره الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

ومَن تدبَّرَ هذه الآيات عَرَفَ ما تُوحي به. وإنْ بَدَا أنها إخبارٌ عن موقف الذين كفروا من قضيةٍ هي من أخطرِ القضايا شأناً (وهي قضيةُ البعث)، فإنَّ لليقين بالبعث آثارُه ونتائجُه في سُلوك الفرك وروابطِ المجتمع , وإنَّ لجُحُودِ البعث أخطاره النفسية والاجتماعية في دُنيا الناس قبل آخرتهم؛ ذلك أن مَن جَحَدَ الرجوعَ إلى الله واحسابَ بين يديه، خَسِرَ نفسَهُ، وأفسد حيث يجب أن يُصلِحَ. ولا عُذْرَ بعد بيانٍ، ولا حُجَّةَ بعد إعذارٍ وإنذار.

﴿ قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (١)

وإذا كان الكفارُ قد استبعدوا إعادةَ الأجساد بعد صيرورتها عِظاماً ورُفاتاً وتُراباً، فإنهم بذلك قد استبعدوا ما هو قائمٌ فيهم، وواقعٌ بهم.

﴿ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ ﴾ (٢)

إنَّ ما يُخاطَبُ به الإنسانُ - من الإيمان بالله، واليوم الآخر - لا تغيب أدلَّته، ولا تخفى دَلالتُه ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ (٣)

أدلَّتُهُ قائمةٌ في الآفاق والأنفس، ودَلالته دعوة الإنسان إلى صراطٍ مستقيم، تُصانُ به الحقوق، وتُحفظ الحُرُمات، ويلتقي الناسُ على كلمةٍ سواء، يعبدون الله وحده ولا يشركون به؛ فهو خالقُهم جميعاً وإليه يرجعون.

والذين يجحدون البعثَ يظلمون أنفسَهم وهم يَبْغُونَها عِوَجاً، مع أنَّ أدلَّة البعث قائمةٌ في أنفسهم، ولكنهم لا يُبصرون. وفي الكون من حولهم، ولكنهم لجُحودهم لا يُوقنون.

﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (٤)

والذين جحدوا البعثَ من قبلُ كالذين يجحدونه من بعدهم، جميعاً مأخوذون

---

(١) الأنعام: ١٢.
(٢) مريم: ٦٦، ٦٧.
(٣) المؤمنون: ٧٤.
(٤) الذاريات: ٢٠، ٢١.

بجُحودهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ۝ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ۝ ﴾ (١)

ويُخطيء مَن يظُنُّ أنَّ سلامَ الناسِ وأمْنَهم - في دُنياهم وأُخراهم - يمكن أن يكون إلاَّ بيقينهم بالرجوع إلى الله والحسابِ بين يديه؛ فإنَّ هذا اليقين هو الذي يُحقِّقُ الرقابةَ الذاتية في قلبِ الإنسان وضميرِه، ولن تستطع أجهزةُ العصر - بعيدةً عن هذا اليقين - أن تُحقِّقَ للناس آمناً، أو تُقيمَ في روابطهم سِلْماً. إيْ واللهِ لن تستطع.

ومِن خَوْفِ الإنسان من أخيه الإنسان أُتخِمَت المدافعُ، وجاعَ الإنسانُ، وحُشِرَت أقواتُ الناسِ في بطونِ الأسلحة، ووَقَع التنافسُ المسعور على التكاثر من أسلحة الدمار والخراب، وظُلِمَ كُلُّ شيءٍ، حتَّى كلماتِ الأمن والسلام؛ ذلك لأن الناسَ لم يأخذوا بما جاءهم به الرسلُ الكرام من اليقين والإيمان؛ لأن الذي يؤمن بربِّه ويخشاه، ويعلم أنه راجعٌ إليه، ومُحاسبٌ على ما قدَّمت يداه، مَنْ يؤمنُ بهذا يكُفُّ شرَّه عن غيره، ويُقدِّمُ خيرَه. ومن هُنا يكون الأمنُ والسلام. سلامُ الحقِّ والعدلِ، سلامُ التعاون على البرِّ والتقوى، لا على الإثمِ والعدوان.

فالإيمانُ باللهِ واليوم الآخر ليس بمَعْزِلٍ عن حياة الناس وشئونِهم، والإيمانُ بالبعث ليس بعيداً عن يقينِ الناس، وأدلَّته قائمة فيهم وفيما خَلَقَ اللهُ من شيءٍ.

وما يقع من الجاحدين اليومَ هو ما وقع من الجاحدين من قبل هؤلاء. وأولئك لم يتذكَّروا بما ذكَّرهم الله، ولم يتَّقوا كما أمرهم الله. بل قالوا مثلَ ما قال الأولون:

---

(١) النمل: ٤، ٥.

﴿ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (١)

ولو تذكَّروا واتَّقوا، ما فَسَدَ حالُهم، ولا ساءتْ عاقبتهم.

(١) المؤمنون: ٨٢ - ٨٧.